لا تنكروا ضربى له مَنْ دُونه مثلاً شرودًا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأَقلَّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس (١)

وهكذا جمع لممدوحه صفات القدماء والمحدثين من أبطال الدنيا العربية ، وجمع من القرآن ما دعم به نظريته فى ضرب الأمثال والاستشهاد بالرجال .

والبحترى سار فى السبيل نفسه ، فجعل ممدوحيه مشاعل تضىء فى الكرم تتوقد فتطفئ الكواكب ، وسيوفاً مشهورة على الأعداء ، وشبههم بالربيع يجلبون النور والزهر والعطر على الدنيا ، وأياديهم عنده مذكورة تزيد فى لمعانها على الشمس (٢) :

يَدٌ لك عِنْدِى قَدْ أَبرَّ ضِياؤُها على الشَّمْسِ حتى كاد يخبو سراجُها

وهكذا كانت الأفعال الحميدة مشكورة مذكورة فى مغالاة وإسراف ، ترتفع على النجم وتخفى نور الشمس ، يغص بها ديوان البحترى فلا يقف لها إحصاء ولا يوفيها عرض أو نقد . ومثله ابن الرومى فقد غالى كذلك وأسرف فقال :

مهما أتى الناس من طول ومن كرم فإنما دخلوا الباب الذى فتحا
يُعطى المزاح ويعطى الجدّ حقَّهما فالموت إن جدّ والمعروف إن مزحا

وذلك يحيرنا ويجعلنا نتساءل عن مبلغ الصدق عند هؤلاء الشعراء ، وهل نؤمن بما يقولون ؛ وعند ذاك نقع فى مشكلة مع التاريخ لا ننتهى فيها إلى معرفة

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة فى قوله جل وعلا : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » — والمشكاة : كوة غير نافذة — والنبراس : المصباح .

(٢) مدح ابن الرومى أيادى الناس وأناملهم حتى قال فى ابن المدبر :
قبل أناملـه فلسن أناملا لكنهن مفـاتح الأرزاق